

الثقافة العربية وتعدّيات العصر

د. نصر الجويلي

المعهد العالي للحضارة الإسلامية

بتونس.

الثقافة خاصيّة إنسانيّة مشتركة. وهي التي تميّز الإنسان عن الحيوان، وتاريخ الإنسانيّة الثقافي يعود إلى مئات السنين حيث كان الإنسان في صراع مع القوى الطبيعيّة وعناصرها الشّيء الذي جعله يمتاز عن غيره بخصائص عديدة من أهمّها القدرة والمهارة على اصطناع الرّموز وإعطائها معاني خاصّة.

وهو ما ساعد على أن تكون لكلّ الشعوب ثقافتها الخاصّة بها إذ لا يمكن أن نتصوّر مجتمعنا من المجتمعات بدون عناصر ثقافيّة بصرف النظر عن مستوى أفراده الفكري والاجتماعي ودرجة رقيهم وتخلّفهم.

1. الاختلاف حول مدلول الثقافة :

لمّا كانت ظاهرة "إنسانيّة" فإنّنا لم نجد اتّفاقا حول مدلول هذا المصطلح حيث عرّفت الثقافة بما يقارب (140) مائة وأربعين تعريفا. فعلم الأنثربولوجيا مثلا يعرف هذا المصطلح بأنّه أسلوب الحياة السّائد في شعب من الشعوب".

وعندما طرح سؤال ما هي الثقافة ؟ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت أشهر

الإجابات إجابة عالم الاجتماع الإنجليزي (إب- تايلور 1832 - 1917) في كتابه "الثقافة البدائية" الصادر سنة 1971 كالاتي "الثقافة أو الحضارة بمعناها الأنثروبولوجي الواسع هي ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والعادات وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع" (1) إلا أن مفهوم الثقافة قد تطور بتطور العصر وهو ما جعل تعريف "تايلور" غير موف بالغرض باعتبار أنه لم يفرّق بين التنظيم الاجتماعي والنظم الاجتماعية من جهة وبين التصور العام للثقافة من جهة أخرى وأن هذا التعريف قد أهمل الحركة والديناميكية التي تمتاز بها الظاهرة الاجتماعية - لذلك نجد - رايت - يُعطي تعريفا للثقافة أوسع، فهي عنده "النمو التراكمي للتقنيات والعادات لشعب من الشعوب يعيش في حالة الاتصال المستمر بين أفرادهِ وينتقل هذا النمو التراكمي إلى الجيل الثاني عن طريق الآباء وعبر العمليات التربوية" (2).

أما المنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)، فقد اعتمدت التعريف التالي للثقافة في المؤتمر العالمي الخاص بالسياسات الثقافية بمكسيكو عام 1982 "الثقافة هي جماع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميّز مجتمعا بعينه أو فئة اجتماعية بعينها، وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات".

أما الثقافة في برنامج "الخطة الشاملة للثقافة العربية" التي وضعتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم "الألكسو"، فهي مجموع النشاط الفكري

TYLOR E.B : Primitive culture, 1981, p. 1 (1)

(2) فريمون جان : تلاقي الثقافات والعلاقات الدولية، مجلة والعلاقات الدولية، ع 4. ترجمة مجلة الفكر العربي المعاصر، ع 29، ص 85.

والفني بمعناها الواسع وما يتصل بهما من المهارات أو يعين عليهما من المعارف والقيم والالتزامات الأخلاقية المستقرة فيها وطرائق السلوك والتصرف، والتعبير، وطرز الحياة" (3).

وهذا التعريف يتميز عن التعاريف الأخرى بأخذه بالمعنى الفكري والمعنى الفني والمعنى الإبداعي مع الاحتفاظ بالمعنيين الاجتماعي، والأنثروبولوجي للثقافة. ويظهر مما سبق "أن هذه التعاريف تستمد من الارتباط الوثيق بين الثقافة والمجتمع، فلا وجود لثقافة دون مجتمع إنساني ولا وجود لمجتمع إنساني دون ثقافة، فهما ظاهرتان متماستان أشد التماسك حتى أن كروبير "عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي يشبههما بأنهما كسطحي الورقة في تلاصقهما، فإذا محونا من أي مجتمع إنساني ثقافته، فإننا نكون قد سلخنا عنه بشريته" (4).

ومن خلال هذه التعاريف المتعددة والمتباينة أحيانا فرق علماء الاجتماع بين أنواع الثقافة التي تشكل سلوك الأفراد والجماعات.

2. أنواع الثقافة :

أ - الثقافة المادية : وهي التي تتمثل بالخصوص في أنماط المأكل والمشرب والأدوات المستخدمة ويمكن أن نعتبر أن هذا النوع من قبيل الثقافة الخاصة الناشئة عن البيئة المختلفة التي يعيش فيها الإنسان.

ب - الثقافة المعنوية : وهي تتمثل في جملة المعارف والأفكار والمشاعر والعلوم والآداب والفنون.

(3) الخطة الشاملة للثقافة العربية، الكويت، 1986، م 1، ص 426.

(4) نفس المرجع.

ج - الثقافة العالمية : وهي التي تساهم وسائل الاتصال الحديثة في انتشارها بين الجماهير. وهذا النوع من الثقافة هو الذي يريد أن يساهم إلى حد بعيد في القضاء تدريجيًا على الثقافات المحلية والثقافة المتوسطة منها بالخصوص.

3. مميزات الثقافة العربية :

وما دمنا نتحدث عن الثقافة العربية فمن الضروري الوقوف عند الخصائص التي تمتاز بها عن غيرها من الثقافات :

- إن الثقافة العربية ربّانية الأساس تستمدّ أسسها من القرآن والسنة، فهي ليست كغيرها من الثقافة الخاضعة إلى تفكير البشر وتصوّراتهم. إنّ هذه الثقافة لا تقوم على أهواء الناس وطبائعهم. ولا يعني أنّها ربّانية المورد إنّها ثقافة العصور الوسطى التي كان فيها الصراع محتدًا بين الكنيسة والناس، فهي ليست ثقافة مغرقة في الطقوس والشكليات، كما أنّها ليست ثقافة ترسخ بالفسر والإرهاب من غير قناعة أو وعي. وإنّما المقصود بكونها ربّانية أي أنّها ثقافة تجمع بين المادّة والروح وتحقّق الترابط المتين بين الدنيا والآخرة وتستجيب لمطلّبات الفطرة الإنسانيّة.

- إنّها ثقافة تتسم بالانفتاح على العلوم والأفكار الصّحيحة النّافعة، فلم ترفض هذه الثقافة طوال مسيرتها أيّ علم من العلوم النّافعة، بل اعتبرت أنّ تبني علوم العصر ضروريّ وأكيد انطلاقًا من أنّ الحكمة ضالّة المؤمن أنّى وجدها فهو أحقّ بها، وهو ما ساعدها على تقبّل كلّ ما هو جديد والتفاعل معه في غير ما ذوبان وفقدان للكيان - ومما يؤكّد هذا التفتّح أنّ الثقافة العربيّة قد سيطرت في وقت من الأوقات على الثقافات الأخرى طوال قرون عدّة، ممّا جعلها ثقافة إنسانيّة متميّزة مؤثّرة ومتأثّرة، واستطاعت أن تكون ثقافة مبدعة ومضيفة ساهمت في بناء حضارة عالميّة كان لها أثرها على المستوى الفكري

والمستوى الاجتماعي والمستوى الاقتصادي قادرة على العيش في سلام دائم مع الثقافات الأخرى⁽⁵⁾.

وموقع العالم العربي جغرافيًا هو الذي ساعد هذه الثقافة على أن تكون على سلة كبيرة بقارات العالم. فقد كان العرب منذ القديم على اتصال دائم بأوروبا وشرق آسيا عن طريق التجارة، وقد اتسع هذا اللقاء بين الثقافة العربية والثقافات الأخرى بعد ظهور الإسلام، وهو ما جعل التعاون العربي مع الخارج متصل الحلقات إذ امتد من بلاد الأندلس شرقًا ومن جبال طوروس شمالًا إلى بحر العرب وأواسط إفريقيا جنوبًا، وهذا يؤكد "أن الأمة العربية أمة ولدت عالمية الاتجاه، أمة قادرة على التعاون والحوار وعلى الأخذ والعطاء"⁽⁶⁾.

كما أن الواقع التاريخي يشهد على أن الدين الإسلامي قد ساعد هذه الثقافة على أن تكون في يوم من الأيام في مستوى الثقافات الأخرى. يقول الأستاذ السندروياوزاني في بحثه الذي قدمه إلى ندوة الحوار العربي الأوروبي سنة 1986 : "تشير الوقائع إلى أن العلوم التجريبية قد ازدهرت خلال العصور الزاهرة في تاريخ الإسلام، في حين أن العلوم التجريبية كانت في الحضيض أثناء العصر الزاهر للمسيحية - العصر الوسيط - ولا شك أن الإسلام، وهو ديانة توحيدية، قد شجّع بمختلف أشكال التشجيع على البحث والعلم التجريبي..."⁽⁷⁾. إن الثقافة العربية ثقافة تقبل الحوار مع الآخر.

وكانت تقدم نفسها إلى الثقافات الأخرى وخاصة الثقافات الأوروبية منطلق الحوار المتكافئ الهادف بأهمية الخصائص الثقافية للأمة العربية وإثرائها.

(5) عبد العزيز أمير : دراسات في الثقافة الإسلامية، ط- دار الكتاب العربي، 1978، ص ص 23-24.

(6) المجلة العربية للثقافة، ص 7، ع 13، سبتمبر 1987، ص 64.

(7) نفس المرجع، ص 65.

وإذا كانت الثقافة العربية قد قبلت الحوار واعتبرته من العوامل المساعدة على نمائها، فإنّ الثقافة الأوروبية قد تنكّرت لهذا الحوار والمعاملة بالمثل، بل سعت إلى اعتبار الثقافة العربية ثقافة منغلقة على نفسها ترفض الحوار والتعامل مع أيّ ثقافة أخرى.

ومما يؤكد قابليّة الثقافة العربية للحوار الدعوات التي ما انفكّ يجهر بها المثقّفون العرب قصد تطوير الحوار وإرسائه على أسس صحيحة مع احترام خصوصيات كلّ ثقافة، وهو ما نبّه إليه الوزراء والمسؤولون عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي في المؤتمر الذي انعقد بدمشق من 21 إلى 23 أفريل 1987، حيث أكدوا على ضرورة تنشيط الحوار الثقافي المتكافئ بين الثقافة العربية والثقافات الأخرى ودعوة الدّول العربية إلى تكوين مؤسسات ذات صبغة عربيّة قوميّة للقيام بهذه المهمة والحفاظ على المخزونين الثقافيّين المحلي والقومي.

4. الغزو الثقافي :

إنّ الغزو الثقافي ظاهرة عالميّة في عصرنا الحاضر تعاني منها دول العالم النامي ودول العالم المتقدّم سواء بسواء مهما اختلفت الدّرجة، وتختلف خطورة الغزو الثقافي من بلد إلى آخر حسبما تجده الثقافة الغازيّة من مقاومة، وكلّما كانت المقاومة أكثر كانت الخطورة أقلّ.

وأمام تباين ثقافات العالم نتيجة اختلاف الدّول ثراء وتقدّمًا علميًا أصبح الغزو الثقافي بمثابة الظاهرة الحتميّة لأنّ البلدان النامية والدّول العربيّة لم يكن لها إسهام يذكر في الوقت الحاضر من حيث الإبداعات العلميّة والتقنيّة المتطوّرة. وهو ما جعل ثقافات هذه البلدان تستهلك ما هو آت من الخارج. ولقد تعرّضت الثقافة العربيّة بالخصوص إلى أنواع من الغزو مسّ الجانب العقدي والجانب الثقافي والجانب الاجتماعي. وهو ما جعل الثقافة العربيّة عرضة لهذه التحدّيات حيث التخلف في جميع صوره.

وقد كان لهذا التخلّف التّأثير الكبير على الثّقافة العربيّة. فبعد أن كانت ثقافة منتجة مبدعة أصبحت ثقافة تجتري الماضي ويغلب عليها السكون. وأصبح المثقّف العربي يمثّل دور المتفرّج على العالم المحيط به الذي ينهض فكرياً واجتماعياً واقتصادياً، كما أنّ من العوامل التي أثّرت في تراجع الثّقافة العربيّة ظهور نزعة الاستعمار العسكري الثّقافي إذ الغاية التي يهدف إليها هذا الاستعمار العسكري تغلب حضارة وثقافة أشدّ قوّة على ثقافة نسيت أن تجاري التّاريخ كما يقول محمود المسعدي⁽⁸⁾ والسّعي إلى محو الذاتيّة الثّقافيّة والشّخصيّة الحضاريّة للبلدان التي استولى عليها، وفق خطة مدروسة. ولقد قام الاستعمار الفرنسي في بلدان الشّمال الإفريقي بمحاولات عديدة قصد القضاء على الثّقافة العربيّة الإسلاميّة لهذه الأوطان، بدأ بتركيز المؤسّسات الثّقافيّة الفرنسيّة وفتح باب التّجنيس وعقد المؤتمرات الكنسيّة - المؤتمر الأفخارستي في تونس - لكن رواد الإصلاح في هذه البلدان تفضّلوا إلى النّوايا الاستعماريّة وإلى ما يهدّد الثّقافة من الأساس، فكان التّفكير في تجديد الفكر العربي وإحياء الثّقافة العربيّة وتطوير أساليب التّعليم وإدخال العلوم العصريّة في برامج المؤسّسات التعليميّة، وكانت هذه المحاولة الجادّة التي ظهرت في مصر على يد رفاعة رافع الطهطاوي، وفي تونس على يد خير الدين التّونسي والشيخ سالم بوحاجب والشيخ الطّاهر ابن عاشور ومحمد النّخلي وغيرهم قد اعتبرت كرد فعل طبيعيّ لمرحلة التخلّف الفكري والتخلّف الاجتماعيّ اللّذين كانا يعاني منها العالم العربي.

ولعلّ من أشدّ الدّوافع التي حفزت رجال الإصلاح في تونس وفي بقيّة البلاد العربيّة على النهوض بالثقافة العربيّة شعورهم بأنّ التّقدّم لا يحصل إلّا إذا نسجنا على منوال الأمم المتقدّمة في السّياسة والاقتصاد والتّربية والتّعليم مع مراعاة ما يوافق شريعتنا ومكوّناتنا الثّقافيّة والحضاريّة، وإدراكا منهم أن سبب

(8) المسعدي محمود: تأصيلا للكيان، تونس، 1979، ص 87.

التَّخَلَّفَ لا يعود إلى العوامل الاقتصادية بل أيضا إلى تعطيل الفكر وتقوقعه وماضوية الثقافة والتشبُّث بالتراث الفكري القديم في الدين والسياسة والاجتماع.

ومن هذا المنطلق، كانت الدعوة إلى تجديد الثقافة كسبيل إلى التخلص من عقدة التبعية حتّى لا يظلّ الفكر العربي يعيش على الماضي بدعوى الأصالة، ورفض المعاصرة بدعوى أنّها خروج عن المعقول في حين أنّ التقدّم الثقافي لا يعني أبدا التخلّي عن المقومات والمبادئ الإنسانية العالمية، والكثير من الدّول التي حقّقت تقدّما ملحوظا في السياسة والاقتصاد والعلوم ما زالت محافظة على تقاليدها وثوابتها الثقافية وتراثها المجيد. إلّا أنّ هذه المحاولات الجادّة في سبيل الدفاع عن الثقافة الوطنية قد أصابها نوع من الفتور نتيجة الانشغال بدعم الوحدة العربية والكفاح العسكري ضدّ الاستعمار، وإن بدأ الشعور يظهر على السّاحة العربية منذ الثّمانينات في سبيل إرساء ثقافة عربيّة متطورة علّها تستطيع الوقوف أمام التحديات المعاصرة التي سنحدّث عنها لاحقا.

5. التحدي التكنولوجي :

تعتبر التكنولوجيا من أخطر أنواع التحديّ التي واجهتها الثقافات ومنها الثقافة العربيّة ومازالت تواجهها وخاصة تلك الثقافات التي مازالت قاصرة على دخول عالم التقنية لأسباب اقتصادية واجتماعية ولم تنتهيا بعد الوقوف في وجه هذا الغازي الجديد الذي أصبح يكتسح أجزاء العالم، ونبهه (ريني ما هو) المدير السابق لليونسكو إلى هذه الظاهرة الجديدة من أنّ التصنيع والعلوم والتكنولوجيا وكلّ القوى التي تعمل عملها في تكيف مصير المجتمع الإنساني أصبح ينتشر مفعولها على قدر أوسع من العالم، ويمتدّ إلى جميع سكّان المعمورة بلا استثناء⁽⁹⁾، وأصبحت التقنيات الحديثة والمتطورة تهدّد شعوب العالم النامي

(9) نفس المرجع السابق، ص 95.

وتفرض عليها التّبعيّة الدّائمة إن هي وقفت دون تحقيق أيّ تقدّم تكنولوجي، ولم تصرف جهودها نحو دعم البحوث العلميّة في الميادين الاقتصاديّة والاجتماعيّة وتعمل على تطوير ثقافتها حتّى تكون في حصانة من خطر التّقنيات الحديثة.

ولنا في التجربة اليابانيّة خير مثال "لأجل مغالبة تأثيرات النمط الأوروبي للعلم والتّقنية، ولأجل حماية الثقافة الوطنيّة" ذلك أنّ الخطر التّكنولوجي على الثقافة العربيّة وغيرها من الثقافات يتمثّل حسب رأينا في ما يتوهمه البعض من أنّ الانتاجات الماديّة والعلوم التّقنيّة تتسم بالتّجرّد والبراءة من كلّ خطر يعتقّد، وأنّ التّكنولوجيا لا علاقة لها البتّة بثقافة أهلها وهي بذلك لا تشكّل أيّ خطر على المتعاملين معها، في حين أنّ الإنتاج الماديّ والإنتاج التّكنولوجي منه بالخصوص ما هو إلاّ ثمرة للمكونات الثقافيّة ونتيجة من نتائجها وهو ما أكّده العالم الاقتصادي المكسيكي "هريرا" *Herrira* من أنّ التّكنولوجيا ليست مظهرا ماديا للثقافة فحسب بل هي أيضا عنصرا مركزيا فيه، وإنّ نقل التّكنولوجيا، حسب رأيه، إنّما يعني أيضا نقل الأشكال والمعايير الثقافيّة، وهذا يهدّد الاستقلال الثقافي للبلدان النامية التي ما زالت عالّة على البلدان المتطوّرة صناعيا في هذا الميدان⁽¹⁰⁾، وهو ما تفتّن إليه أغلب علماء الاجتماع اليوم، فعالم الاجتماع البرازيلي - "غوليت" - يؤكّد على أنّ التّكنولوجيا من العالم المصنّع إلى العالم النامي لا يشمل المجال الإنتاجي فحسب وخيرات العمل وفي البنية النفسيّة ونمط التفكير، وهذا ما قد يهدّد الاستقلاليّة الثقافيّة للدولة المستقبلية المستوردة، لأنّه لا يمكن أن نتصوّر إنتاجا ماديا أو اختراعا علميا أو أيّ ظاهرة تكنولوجيّة بريئة كلّ البراءة من أيّ خلفيّة فكريّة، ولهذا لا بدّ من التوصل إلى تكنولوجيا مناسبة تأخذ بعين الاعتبار مكونات العالم النامي وخصائصه الاجتماعيّة والثقافيّة والبيئيّة.

ولذلك، كان الهدف الأساسي لندوة اليونسكو المنعقدة في فيانا عام 1979 حول موضوع "العلم والتقنية لأجل التنمية" البحث عن إمكانيات ووسائل تحويل العلم والتقنية من عناصر مهمشة للثقافة الوطنية إلى أجزاء فاعلة ومكونة في الثقافة الوطنية تراعي خصائصها وتتطابق كل المطابقة مع توجهاتها" وإن العلم يجب أن يساهم في إنشاء ثقافة شمولية للبشر، باعتبار أن التقدم العلمي والمشكلات العالمية المرتبطة به ارتباطا وثيقا يتطلبان إنشاء تفكير عالمي يتصف بالشمول على أن هذه الثقافة الشمولية التي تدعو إليها أطراف عديدة ما هي إلا عبارة عن تلك الثقافة الغربية والأمريكية المهيمنتين اليوم على أجزاء كبيرة من ثقافات العالم، وهو ما حدا بالمتقنين في العالم الثالث والعالم العربي منه إلى الدعوة إلى حماية الثقافة الوطنية مما يسمى بالثقافة الشمولية العالمية قصد "تحقيق علاقات ثقافية عادلة متبادلة النفع في العالم" (11) تتحول فيها ثقافة البلدان النامية على حدّ تعبير راشكوفسكي "من قوة سلبية إلى قوة فاعلة وخبرة تتزايد مشاركتها في تطوير الثقافة العالمية" (12) ذلك أن الدعوة إلى قبول الثقافة العالمية الشاملة والانصهار فيها دون نقد ودون موازنة بين خصوصيات الثقافة العربية الإسلامية وبين تلك الثقافة يحمل مخاطر عديدة على الثقافة والمجتمع العربيين فنحن على حدّ تعبير الدكتورة فهيمة شرف الدين لا يمكن أن نتعامل مع العالمية من موقع حيادي، إن الذي بإمكانه التعامل معها حياديا هو فقط من يستطيع أو يطمح أو يحلم بأن يكون يدا لها، وهي تعني بذلك الدول المصنعة كالولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا واليابان. لذلك، يجب أن نأخذ موقفا نقديا انطلاقا من موقعنا كعالم نام بالنسبة إلى هذه الثقافة الهجومية التي هي الثقافة العالمية (13).

(11) نفس المرجع، ص 110.

(12) راشكوفسكي: الثورة العلمية التقنية كعامل ثقافي خلاق في المجتمعات النامية من كتاب : دراسة المشكلات السوسولوجية للبلدان النامية، موسكو، دار العلم، 1987، ص ص 54-55.

(13) مجلة الفكر العربي، ديسمبر 1992، ص 22.

وليس معنى هذا أنّ ثقافتنا يجب أن ترفض التكنولوجيا وتوصد الباب في وجه البحث العلمي لأنه إذا كان ثمة من عامل يقرب في عصرنا الراهن بين الثقافات الوطنية والخاصة، فهو التكنولوجيا، لهذا، لا بدّ أن تكون التكنولوجيا عامل توحيد ثقافي على مستوى العالم بأسره، والحذر من التكنولوجيا المدمرة للثقافة، وهذه المحاذير حسب رأينا لا تكون إلّا إذا أقدمنا على تعريب التكنولوجيا حتّى نكون قادرين على استعمالها، وهي مهمة الجامعات العربية ومراكز البحث العلميّة. فاللغة العربيّة تمتاز بقدرة التعبير عن مقتضيات الحياة وما يستجد من علوم، وقد شهد لها بهذه الخاصية الكثير من الدارسين من غير العرب كأرنست رينان في كتابه "تاريخ اللغات السامية" والمستشرق الأمريكي وليم ورل الذي قال في خصوص هذه اللغة "إنّ اللغة العربيّة لم تتقهقر فيما مضى أمام لغة أخرى من اللغات التي احتكّت بها، وينتظر أن تحافظ على كيانها في المستقبل كما حافظت عليه في الماضي واللغة العربيّة لين ومرونة يمكنها من التكيف وفقا لمقتضيات العصر".

وما قاله المستشرق ماسنيون في حديثه عن لغة القرآن والتكنولوجيا ليعتبر من الشهادات التي نعتزّ بها إذا يقول : "إنّ المنهاج العلمي قد انطلق أول ما انطلق باللغة العربيّة ومن خلال العربيّة في الحضارة الأوروبيّة، وإنّ اللغة العربيّة دوليًا لهو العنصر الجوهري للسلام بين الأمم في المستقبل" (14).

6. التحديّ الإعلامي :

إلى جانب التحديّ التكنولوجي الذي أصبح يمثل خطرا كبيرا على الثقافة العربيّة والثقافات الأخرى عموما، هناك التحديّ الإعلامي أو ما ينعت عند الكثير بالغزو الإعلامي وخاصة الغربي منه، ذلك أنّ وسائل الهيمنة لهذا القطاع على المستوى الثقافي تتمثّل في :

(14) مجلّة الوحدة، العددان 101-102، مارس 1993، ص 130.

أ. وكالات الأنباء العالمية وذلك بفضل ما تملكه من القدرات على نقل ما تنقله هذه الوكالات يتلون بمنظار ناقلها وبمصالح البلد الذي يمثلته.

ب. التحكّم بالاتصالات الدولية وذلك عن طريق الأقمار الصناعية والاتصالات اللاسلكية بما لها من مقدرة على كسر حواجز العزلة بين بلدان العالم والوصول إلى المناطق النائية التي لم تكن تصلها وسائل الاتصال القديمة.

ج. التحكّم في التنمية صناعة وتصديرا، ويظهر هذا بالخصوص في هيمنة الدول الغربية واليابان على صناعة تكنولوجيا الاتصالات الدولية وتجارتها، وهذا التحكّم يؤدي بدوره إلى فرض أنواع من التسلّط في ما يخصّ تصدير التكنولوجيا إلى البلاد العربية وغيرها من الدول النامية.

ومعلوم أنّ هذه الأساليب لها تأثيرها الكبير والمباشر على ثقافة هذه البلدان، حيث تحاصر وسائل الإعلام الغربية الإنسان العربي بالكلمة المسموعة والكلمة المقروءة، وذلك أنّ الفرد اليوم في مختلف مناطق العالم أصبح يعتمد اعتمادا كلياً على تحصيل المعلومات من خلال وسائل الإعلام المتطورة.

وهذا الخطر يهدّد على حدّ سواء بلدان الشّمال وبلدان الجنوب، وقد شعر الأوروبيون أنفسهم بهذا الخطر المحقق بثقافتهم، وهم الذين نبّهوا على هذه الهيمنة الثقافية المتأتية من خلال البرامج السمعية المرئية الأمريكية واليابانية، وعلى الأخطار التي تهدّد الهوية الثقافية الأوروبية.

إنّ التطوّر الإعلامي سيؤدّي في نظرنا إلى فرض ثقافة جديدة مخالفة تماما لثقافات الدول النامية، كما أنّ هذا التطوّر سيؤدّي اليوم أو غدا إلى تهميش الثقافة الوطنية ومحاولة القضاء تدريجيّاً على الهويّات الثقافية الهشة غير القادرة على الوقوف في وجه الثقافات الغازية.

وهذا ما جعل بعض الدول تواجه ما أسماه "توماس ماك" بالإمبريالية الإلكترونية التي يعرفها بقوله : "بأنّها علاقة التبعية التي تأسست باستيراد

معدّات الاتصال والبرامج الأجنبية ومعها المهندسين والفنيين وما يتعلّق بها من بروتوكولات ومعلومات، وذلك بخلق الأسس لمجموعة من المعايير والقيم الأجنبية والتوقعات التي يمكن أن تغيّر الثقافة المحليّة وعمليات التّشكّل الاجتماعيّة إلى درجات مختلفة". ولا شكّ أنّ هذه الإمبرياليّة الإلكترونيّة لها تأثيرها المباشر على الاستقلال الثقافي في الوطن العربي، وهو ما يؤدي إلى انسلاخ الفرد عن ثقافته وتبني ثقافة أخرى، وهو ما تسعى إليه الإمبرياليّة الثقافيّة في الغرب اليوم. يقول "روبرت بلم" *Robert Blum* في كتابه الشؤون الثقافيّة والعلاقات الخارجيّة: "إنّه التزام منّا أن نفعل ما في وسعنا لنمارس نفوذنا الثقافي - أي الأمريكي - بطريقة تساعد الآخرين بحيث لا يكون حجم المساعدة يسمح للمبادئ الغربيّة أن تتمدّد الآخر بشيء سوى التطلّع إلى تغيير غير مسيطر عليه. هذه مهمّة ثقافيّة أساسيّة تستلزم تصوّراً واضحاً لقيمنا". وهذا يدلّ دلالة واضحة على أن النفوذ الإعلامي الغربي غايته السيطرة ونشر القيم والمعايير الثقافيّة الغربيّة أولاً وآخراً.

ويمكن قياس هذه التّأثيرات من خلال المقارنة، ففي العقد الماضي ارتفعت الأصوات في دول أوروبا الغربيّة منادية بضرورة حماية ثقافتها من تّأثيرات الإعلام الأمريكي، وصدرت كتب في فرنسا بالخصوص بين سنة 1979م و1980م تتحدّث عن الحرب الثقافيّة التي تشنّها وسائل الإعلام الأمريكيّة على الثقافة الفرنسيّة.

فإذا كان هذا بالنّسبة إلى أوروبا المتقدّمة إعلاميّاً والقادرة على مواجهة الإعلام المضادّ، فإنّ الأمر سيكون أشدّ خطورة على ثقافة بلدان العالم النامي ومنها البلاد العربيّة التي مازالت تبحث عن إعلام متطورّ قادر على منافسة وتصحيح الخبر وتوجيهه إلى خدمة الشّعوب العربيّة اجتماعيّاً واقتصاديّاً.

إنّ هذا التصرف المشين من الإعلام المتطورّ تجاه ثقافات الشّعوب الأخرى ينطلق من فكرة مفادها أنّ ثقافات شّعوب وأمم العالم الثالث ما هي إلّا

ثقافات بدائية يتوجب القضاء عليها لأنها تقف ضد التجديد الثقافي⁽¹⁵⁾ وخاصة تلك الثقافات التي تناضل من أجل بناء حياة مستقلة اقتصاديًا وسياسيًا وفكريًا.

وأمام هذه المعركة التي تواجهها الثقافة العربية، فإن هذا يحتم عليها :

- الانفتاح على التجارب العالمية في مجال الاتصال والاستفادة قدر الإمكان من تجارب الأمم المتقدمة في هذا الميدان ذلك أن الذود عن الثقافة الوطنية لا يعني بحال من الأحوال رفض التفتح والانغلاق على الذات.

- توجيه الإعلام وتوظيفه لخدمة الاستقلال الثقافي والحفاظ على الهوية الثقافية العربية الإسلامية.

- تطوير الإعلام والابتعاد به عن الرواسب التي لم يبق مبرر لوجودها في عالم تسوده الديمقراطية والتعددية وحرية الرأي والتعبير : لأن للإعلام دورا متميزا في دعم الحركة التي تعيشها البلدان ومنها الحركة الثقافية بالخصوص.

- الاعتناء باللغة العربية كبعد من أبعاد العملية الاتصالية، فليست اللغة كما يقول الدكتور "فؤاد زكريا" لسانا فحسب بل إنها حاملة لتراث طويل ولتاريخ قديم كانت - أي اللغة - هي أداة تماسكه ووسيلة التعبير عنه⁽¹⁶⁾.

7. تحدي العولمة :

برزت في السنوات الأخيرة مفاهيم اقتصادية جديدة ما يشهده العالم من تحولات سياسية

واقتصادية وثقافية مست جوانب من تكنولوجيا الإعلام والاتصال ومن هذه المفاهيم الجديدة مفهوم العولمة "La mondialisation" - الذي أصبح

(15) السيد موسى: موقع الإعلام في النموذج الشامل للغزو الإمبريالي، مجلة الوحدة، مارس 1989، ص 50.

(16) عيسى يوسف عز الدين : بيولوجيا الاتصال، مجلة عالم الفكر، ع 2، ص 50.

يرتبط في ظلّ الثورة العلميّة. لم يعد الوعاء القطري لتوسيع الإنتاج، ولم تعد السوق القطريّة مهما يكن اتّساعها كافية لاحتواء حركة السلع والخدمات ورأس المال والعمل⁽¹⁷⁾ وهو ما ساعد على إيجاد بدائل الاقتصاد المتخلف الساكن قصد انفتاح الاقتصاد على الخارج ليشمل الانفتاح النقدي والانفتاح المالي والانفتاح التكنولوجي والانفتاح الجمركي.

فالعولمة الاقتصادية تركز على عالميّة الإنتاج الذي تحتكره الشركات المتعدّدة الجنسيات، وأصبح الاقتصاد يتّجه اتّجاهاً عالمياً منذ التوقيع على اتفاقيات جولة الأوروغواي في أبريل 1994 بمراكش انبعاث المنظّمة العالمية للتجارة في 25 جويلية 1994. ولقد ساهمت الثورة العلمية والتكنولوجيّة إلى حدّ كبير في حصول التغييرات التي تحقّقت في مجالات عديدة كالإلكترونيات الدقيقة والآلات الحاسبة والإنسان الآلي وصناعة المعلومات والاتّصالات والطاقة النوويّة وتكنولوجيا الفضاء وغيرها. وبذلك أصبحت العولمة عملية لا مفرّ منها ولا يمكن ألاّ التكيف معها، لأنّ العولمة ستعكس آثارها على الثقافة والاجتماع والسياسة، لأنّها كما يقول الرئيس زين العابدين بن علي "المال الحقيقي لما يشهده العالم من ثورة تكنولوجيّة واتّصاليّة وتحرير للاقتصاد والتجارة الدوليّة وتفاعل للثقافات وتلاقحها"⁽¹⁸⁾.

إنّ الثقافة التي تروّج لها العولمة هي تحويلها إلى نوع من السلطة شأنها شأن رأس المال بدلا من أن تكون ثقافة ذات نتاج مجتمعي هادفة من وراء ذلك إلى القضاء على القيم والهويّات الثقافيّة الوطنيّة منها والمحليّة والعمل على ترويج قيم تتسم بالفرديّة والاستهلاكيّة الغربيّة على أساس أنّ المفاهيم التي تروّج لها العولمة هي وحدها التي يجب أن تعتمد كأساس للتعاون بين الدول والشعوب، وهو ما يتجلّى واضحا في الوثيقة المسمّاة بـ "الإستراتيجية المشتركة

(17) موسى فؤاد : الرأسمالية تجدد نفسها، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، مارس 1990، ص 8.

(18) زين العابدين بن علي، تونس، 4 نوفمبر 1996.

للاتحاد الأوروبي في المتوسط" الصادرة عن مؤتمر قمة الاتحاد الأوروبي عام 2000 حيث ورد فيها ما يشير بكل وضوح لا يقبل التأويل إلى سعي الاتحاد إلى تغيير بعض القيم الدينية في المتوسط حتى تتوافق مع القيم الدينية والثقافية الغربية، وهكذا، فإن "الدور الذي تعتمد عليه العولمة للهيمنة على الثقافة العربية يمكن اعتباره تطبيقاً عسرياً للمنهج والوسائل التي اعتمدتها الدول الأوروبية الاستعمارية حيث اعتبرت الثقافة وسيلة لشق الطريق أمام العلمية الاستعمارية مثل البعثات التبشيرية والرحلات الاستكشافية" (19).

وجاء هذا الترويج لثقافة الهيمنة، حسب دعاة العولمة، نتيجة أن الثقافات الأخرى ترى في أكثر الأحيان أن الثقافة العربية هي ثقافة نخبة لا تستطيع أن تكون ثقافة غير قادرة على تلبية حاجات الإنسان المعاصر التي تبحث عنها في الثقافات الأولى الوافدة" (20).

ومن هذا المنطلق، فإن العولمة وبالمثل تستهدف التربية في العالم الإسلامي والعربي في ظل واقع حضاري ملتهب بنيران أسلحة الصراع الإيديولوجي والتطور التقني قصد تفريغ العالم الإسلامي من مضامينه الثقافية والعقدية؛ والحيلولة دون استقلال المنظومة التربوية للدول الإسلامية عن المؤسسات التعليمية الغربية حتى تبقى مراكز الثقافة والتربية والتعليم في العالم الإسلامي تابعة للنموذج الغربي دون اعتبار لخصوصياته التي يحرص للمحافظة عليها.

ولعلّ المثال الأكثر دلالة على ذلك، مطالبة هذه البلدان بالتخلي عن ثقافتها وبتغيير مناهجها الدراسية بحجة التحريض على كراهية الآخر في الوقت الذي تتغاضى فيه عما تحتويه مناهج التربية في بلاد الغرب من إساءات للإسلام ونبئه وحضارته والإشادة بالحضارة الأوروبية وتصويرها على أنها

(19) جهان سليم: عولمة الثقافة، المستقبل العربي، ع 293، جولية 2003 ص 124.

(20) العولمة وتداعياتها في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، جانفي 2003، بيروت، ص 18.

حضارة تقدّم وتمدّن رغم كلّ أشكال العنف التي تمارس ضدّ المسلمين في الغرب.

هذا بالرغم ممّا ورد في تقرير التنمية البشريّة لعام 2004 من الدّعوة إلى أن يعيش المواطنون حياتهم كاملة وأن يختاروا هويّتهم الثقافيّة بحريّة تامّة من دون أن يتعرّضوا إلى الإقصاءات السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة بسبب عنصرهم أو لغتهم أو دينهم" (21).

8. التنوّع الثقافي في ظلّ العولمة :

إذا كانت الثقافة أحد المكونات الأساسيّة لبناء المجتمع، فإنّه من المفروض أن يكون لكلّ شعب ثقافة تميّزه عن غيره. وتعبّر عن روحه وتلخّص تجاربه ومنجزاته التاريخيّة باعتبار أنّ لكلّ ثقافة خصوصيّات وإسهامات في الثقافة العالميّة.

ومع هذا، فإنّ الثقافة التي تعمل العولمة على إشاعتها لا تعترف بالتنوّع الثقافي وترى فيه عملاً لا مبرر له. وما هذا إلّا ضرب من الاستعلاء الثقافي الذي ينفي مقولة النسبيّة ويكرّس لثقافة واحدة مهيمنة تمتاز بالرقي والأفضليّة والقدرة على تلبية حاجات الإنسان المعاصر.

ولقد وجدت هذه النظريّة التي ترفض التنوّع الثقافي معارضة كبيرة يقول "كلود ليفي شتراوس" قد تكون حضارة أو ثقافة في عصر من العصور مركز الحضارات وأرقاها وأفضلها لما تميّزت به من عوامل النهضة وعناصر الارتقاء ولكنها لا تكون كذلك دائماً في كلّ العصور" (22).

(21) العزيز موسى ياسين : الثقافة في عالم متغيّر، مجلّة التّوحيد الإيرانيّة، ع 116، 2005، ص 160-162.

(22) محفوظ (محمد) : الفكر الإسلامي المعاصر ورهانات المستقبل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 1999، ص 217.

كما رفض ارنو لدونوبي (ت 1975) نظرية الثقافة العالمية الواحدة انطلاقاً من دراسة الحضارات والثقافات المحلية حيث توصل إلى أن كل حضارة تمثل في حد ذاتها بيئة ثقافية خاصة.

إن الغرب وحده يرى في ثقافته الحديثة نزوعاً نحو وحدة ثقافة عالمية يكون هو مركزها. وبذلك فإن الثقافة العالمية لا يمكن في نظر تونبي أن تعبّر بحق عن مفهوم الثقافة المتعارف عليه وإنما تعبّر عن واقع تاريخي يقوم أساساً على مبدأ السيطرة والتفوق. ومن هنا، فإن الوحدة الثقافية التي يروج لها الغرب تقوم على ثلاثة أوهام وهي : وهم حب الذات، وعدم الاعتقاد بمجموعة الشرق ووهم الاعتقاد بخطّ تطوّر واحد لتاريخ الحضارات والثقافات (23)، والتنوّع الثقافي الذي ندعو إليه هو السبيل إلى التعاون والتفهم والانفتاح على الآخر لأن الخطاب في الثقافة العربية الإسلامية خطاب موجه إلى الناس كافة دون اعتبار اختلاف الأجناس والأديان واللغات. وقد نصّ القرآن الكريم على ذلك في قوله تعالى "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا" (الحجرات 13) يقول ابن خلدون في مستهلّ تاريخه "إن الله سبحانه اعتمر العالم بخلقه، وكرم بني آدم باستخلافهم في أرضه، وبثّهم في نواحيها لتمام حكمته، وخالف بين أممهم وأجيالهم إظهاراً لآياته، فيتعارفون بالأنساب ويختلفون باللغات والألوان، ويتميزون بالسير والمذاهب والأخلاق، ويفترقون بالنحل والأديان والأقاليم والجهات.... ليتّم أمر الله في اعتمار أرضه بما يتوزّعونه من وظائف الرزق وحاجات المعاشر بحسب خصوصياتهم ونحلهم، فتظهر آثار القدرة وعجائب الصنعة، وآيات الوجدانية" (24) معنى هذا أن الاختلاف أصيل في الخلق، وهو آية من آيات الله، وهو سبيل إلى التعارف والتعاون والتفاهم بدل التقاتل والهيمنة والنفي والإقصاء، فالتعارف بين الشعوب

(23) تونبي : مختصر دراسة التاريخ، ترجمة فؤاد شبل، القاهرة، 1973، ج 1، ص ص 59-61.
(24) ابن خلدون : كتاب العبر، القسم الأول، المجلد 2، ط. دار الكتاب اللبناني، 1956، ص ص 3-4.

لا يحصل إلا بالتعاون والحوار بين الثقافات والحضارات والأديان لبناء مستقبل أفضل للبشرية جمعاء.

وإذا كانت العولمة الاقتصادية ستحقق التقارب والتمازج بين الأمم، فإن الثقافة يجب أن تتخلى عن هذه المهمة، وهي مؤهلة اليوم إلى التفاعل مع الكيانات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، حتى تدفع أسس المبادئ الإنسانية الثابتة مع المحافظة على الخصوصية الوطنية والإرث الحضاري للمجتمعات الإنسانية، ولا يمكن للثقافة العربية اليوم أن تكون بمعزل عما يشهده العالم من تطور سريع من جوانب الحياة كلها، بل لابد أن تكون هذه التحولات وأن تفك عنها العزلة والانغلاق.

وهذه المواكبة تفرض على المنقذين الارتقاء بالإنتاج الثقافي إلى المستوى الذي يجعل هذه الثقافة قادرة على كسب رهانات العولمة والحضور الفاعل على الساحة الدولية لأن الثقافة لا تزدهر إلا إذا ازدهرت الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ولا تكون الثقافة حية أصيلة إن هي عاشت بمعزل عن شؤون المجتمع.

والثقافة في ظل العولمة يجب أن تتجاوز الأطر التقليدية التي عرفتھا طوال القرون الماضية وأن تقتحم المجالات التي يحتمها منطق التطور وتفرضها آليات العصر الحديث كوسائل الحديث كوسائل الاتصال الحديثة، وشبكاتھا المتنوعة، وهو ما يجعلها قادرة على توجيه تفكير الإنسان وسلوكه نحو التمييز بين الغث والسمين في الإنتاج الثقافي والإنتاج الاقتصادي وإدراكه لحاجياته الضرورية، ونظرته إلى المنتج والخدمات، وإقباله عليها، واختياره لها يكون وفق المعايير والرؤى التي تخلقها الثقافة، وهكذا كما يقول الرئيس زين العابدين بن علي، فإنه لا غلبة في ساحة المنافسة الاقتصادية بدون حضور ثقافي فاعل.

9. كيف نؤسس ثقافة عربية قادرة على المواجهة ؟

إذا أردنا أن نؤسس ثقافة عربية تكون قادرة على الوقوف في وجه التحديات المتعددة الأشكال والألوان، فإنّ هذا لن يكون، حسب رأينا، بالعزوف عن الثقافات الأخرى والانطواء على الذات، لأننا نعيش اليوم في منطقة كانت وما زالت مفتوحة على الغير، وهذا يفرض علينا مواصلة التفتح مع التمييز بين النافع منه والضار، وبين الملائم لثقافتنا وحضارتنا، وتوجهاتنا الاقتصادية والاجتماعية والفكرية بين ما هو غير ملائم لهذه المكونات.

ويعدّ الحوار مع الثقافات الأخرى والتعاون معها من تقاليد الثقافة العربية فهو داخل في صميمها، وقد مؤرس هذا الحوار في عصور السلم وفي أوقات الحرب على السواء، وأبلغ دليل على ذلك الحوار الحضاري الثقافي العميق الذي كان يدور بين الثقافة الغربية المسيحية في عصر الحروب الصليبية. فبالرغم من هذه الحروب التي استمرت طويلا بين العرب والصليبيين، فإنّ الحوار لم ينقطع قصد التفاهم لأنّ مشكلة التفاهم الإنساني هي مشكلة العلاقات بين الثقافات. وهو ما أقرته لجنة الخبراء في الدراسات المقارنة للحضارات التي اجتمعت في اليونسكو في نوفمبر عام 1949م. وتواصل السعي إلى دعم هذا الحوار من قبل منظمة اليونسكو سنة 1977م، وذلك بإعلان المبادئ الخاصة بالتعاون الدولي الثقافي والذي جاء فيه :

- لكلّ ثقافة قيمها التي ينبغي احترامها والحفاظ عليها.
- لكلّ شعب الحقّ في أن ينمي ثقافته.
- كلّ الثقافات بالرغم من الاختلاف العميق بينها وتأثير كلّ منها على الأخرى هي جزء من التراث المشترك للإنسانية.

وهو ما شجّع الدول المختلفة الثقافات على عقد الندوات لتكريس الحوار حتّى يحصل التقارب بينها في المجال الثقافي بالخصوص، وهو ما تناولته عديد الندوات التي انتظمت في إطار تونس عاصمة ثقافية لسنة 1997 حيث ندوة

"دور الثقافة في تنمية التضامن بين الشعوب" وندوة "التعاون الثقافي المتوسطي" التي مثلت فضاء متوسطيا هاما وقف عند أهمية ما يجمع بلدان المتوسط من خصوصيات تاريخية وحضارية أصبحت تمثل إرثا له الدور البالغ في تقريب شعوب المنطقة وهذا ما يفسر العلاقة المتينة التي أصبحت تربط أوروبا اليوم بالعالم العربي وهو مؤشر على التفاهم الحاصل بين الثقافتين العربية والأوروبية.

على أن الحوار المشار إليه لا يحصل ولا تحقق منه الفائدة إلا إذا قام على أساس :

- الندبة وعلى التنمية الثقافية داخل الوطن العربي أولا.
- العناية المتزايدة باللغة العربية لأنها ليست أداة تلقي المعرفة فحسب ولكنها أداة ذاكرة الأمة ومخزون تراثها حتى تصبح لغة قادرة على استيعاب المنجزات العلمية والثقافية الحديثة ومصطلحاتها. وهذا يستدعي من المختصين أن يقوموا على خدمة اللغة في ضوء المعطيات اللغوية الحديثة، والدراسات النفسية والاجتماعية حتى تصبح قادرة على التغيير عن روح الجماهير (25).
- إحياء التراث العربي وإعادة قراءته من جديد على ضوء مقتضيات العصر لأن التراث نتاج صور متباينة في الزمان والمكان باعتبار أن أصالة التراث ومعاصرته ليس بالنقيضين وإنما يكمل كل منهما الآخر، لأن الأصالة تتبع من الذات ومن طبيعة ثقافتنا العربية والمعاصرة واقع نعيشه، فإذا توصلت الثقافة العربية إلى صيغة فعالة لإقامة توازن بين الأصالة والمعاصرة، فإن ذلك يعتبر خير كفيل يخلق ما هو طبيعي فكري وإبداعي.

(25) الخطيب حسام : الثقافة العربية الراثة وآفاق تطورها، مجلة المعرفة، ع 239، يناير 1982، ص 105.

على أن هذا لا يتحقق في نظرنا إلا إذا مارسنا النقد الذاتي على تراثنا وممارساتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

- قيام الأنتلجنسيا العربية بدورها المنوط بعهدتها، وهو التحرك والمساهمة في تحرير الإنسان العربي، والوقوف في وجه التحديات حضارة وثقافة وعقيدة، وأن تكون الرائدة في إطلاق الثورة الفكرية والعقلية التي يتطلبها المجتمع العربي، وأن يعتبر المثقفون أنهم طرف أساسي في عملية الصراع المعرفي، كما أنهم طرف في جعل الثقافة العربية مواكبة لروح العصر، لأن المثقف لا يكون متقفا بالمعنى الحقيقي إذا كان بعيدا عن عصره وهموم عصره وثقافة عصره.